مدينة حمص

(١) في مدينة حمص واسمها وتاريخ بنائها

من الغريب ان مدينة حمص التي تدل آثارها على قدمها لم يرد ذكرها في الكتب القديمة كالتوراة ولا في الكتابات الفينيقية والمسمارية والهيروغليفية مع ان بلاداً كثيرة واقعة بجوارها ذكر اسمها في الحروب التي قامت بين فراعنة مصر وبين الاراميين والحثيين سكان البلاد الواقعة في وادي نهر العاصي وذلك منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد — ولكن الآثار المكتشفة من زمن غير بعيد لم تشر الى مدينة حمص ولا الى شعبها وملوكها وامرائها مع ان قربها من مدينة قدس او قادس حاضرة الحثيين كان باعثاً لعدم اهمال ذكرها ولاسيما انها واقعة في نجد خصب سهول كثيرة ومياه غزيرة تصلح للزراعة وتربية المواشي وهي اهم صنعة كان الاقدمون يشتغلون بها

واغرب من ذلك ان التوراة ذكرت مدناً هي الآن صغيرة كصدد ورية وغيرهما وهي تابعة لحمص — واما المدينة التي اشتهرت بهيكلها العظيم الشمس وبقلعتها الحصينة المشهورة فلم تذكرها البتة

ومعلوم ما كتب عن مدينة حماة التي لا تبعد عن حمص كثير من ست ساعات وعن ملوكها وحروبها مع بني اسرائيل(١) وملوك الاشوريين منهم شلمنصر الذي قاتل بنهدد في كركر (٢) وكان قبلاً قد تحالف مع ملك حماة (سنة ٨٦٤ ق.م.) ومنهم تغلث فلاسر في سنة ٧٤٥ — ٧٤٧ ق . م (٣) وفي الآثار المصرية ذكر لشعوب اراد او ارواد وميزا واليون وليتيا ودردانيا وامراء كركميش وقرقميسيا وحلب ولكن لا شيء عن حمص وملوكها مع انها من البلاد العريقة في القدم كما سيتضح لك ذلك مما يأتي

وبحث العلماء الاثريون عن سمع حمص علهم يجدون له اثراً في مسمى غيره فمنهم من زعم انها لا تختلف عن قدس حاضرة الحثيين مع ان هذه المدينة كانت

(١) سفر الملوك الثاني ص ٨ عدد ٣ — ١٠ وق ١٤ عدد ٢٣ — ٢١

(٢) كانت كركر قرية بجوار حماة . عن مسبرو ص ٤٣٩)

(٣) انظر تاريخ مسبرو ص ٦٦ .

واقعة على ضفة بحيرة حمص المعروفة ببحيرة قدس (كما ذكرها ابو الفداء) ويزعم الباحثون عن الآثار منهم طمسن وكندر وكوتيه حرائب مدينة قدس عند تل نبي مندو في الموقع الذي اسست به مدينة اخرى تعرف باسم لاذقية لبنان

واكتشف الموسيو بونيون القنصل الفرنساوي العام مسلة قديمة عليها كتابة فينيقية ارجع تاريخها الى سنة ٨٤٦ ق . م . وفيها ذكر ملك حماة ولش يدعى تراكير يفهم منها ان المسلة كانت تقدمة لالهه الور لانتصاره على بنهدد بن حزائيل ملك ارام . فاستنتج الموسيو بونيون من هذا الاكتشاف « انهُ لما كانت مدينة لش غير معروفة الى الآن ولم يرد ذكر حمص في الكتابات الاشورية ولا الهيروغليفية فلا يستبعد ان يكون لش الاسم القديم لحمص ولكن لا يمكن قبول هذا الرأي بلا بينات اخرى

ولا ريب في ان اسم حمص اصلهُ ارامي وهو برهان كافٍ على اثبات قدمه فان لفظة حمص سريانية بكرة او حمة وحلب او حلبو وقدس او تدسو وكثير غيرها من المدن والقرى الواقعة في سوريا الشمالية

وقال صاحب كتاب سوريا المقدسة المطبوع (باللاتينية) سنة ١٦٩٥ ان حمص كان اسمها قديماً حمصا ثم سلوقيا حميصا — فيغلب على الظن ان حمصا هو الاسم القديم باللفظ الكلداني (ومعناه الحُمّص) ومنها اشتق اليونان اسم اميصا او حميصا اما علماء العرب فاجمعوا على ان حمص عريقة في القدم وان بناءها من عهد العمالقة

قال ابن الشحنة في تاريخ مملكة حلب (ص ٢٣) ان حلب وحمص بن مهر بن حمص بن حلب ابن مكسف من بني عمليق هما اللذان بنيا حلب وحمص فنسبتا اليهما

وجاء في معجم ما استعجم لابي عبيد البكري القرشي : «حمص مدينة بالشام مشهورة لا يجوز فيه الصرف كما يجوز في هند لانهُ اسمٌ اعجمي سميت برجل من العمالقة ويسمى حمص ويقال رجل من عاملة وهو اول من نزلها »

وقال الياقوتي : « حمص بلد مشهور قديم كبير مسوَّر وفي طرفهِ القبلي قلعة حصينة على تلٍّ عالٍ وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق . يذكر ويونث — بناهُ رجل يقال لهُ حمص بن المهر بن حاذ (؟) بن مكسف وقيل حمص بن مكسف العمليقي »

وقال ابو الفداء : « حمص مدينة اولية وهي احد قواعد الشام وهي ذات بساتين شربها من نهر العاصي »

فهذه الشهادات وان كنا لا نقدر ان نتخذها برهاناً قاطعاً على بناء حمص في عهد العمالقة لكن يستنتج منها انها كانت معروفة دائماً كمدينة قديمة العهد

ويغلب على الظن ان حمص كانت قديماً بلداً صغيراً عامل الذكر تابعاً لقدس او لحماة ثم عظم قدرها واتسعت في عهد ملوك سوريا السلوقيين وقام فيها ملوك او امراء كانوا يسوسون شؤونها الدينية والمدنية

ومما يؤيد رأينا في خمول ذكرها في سالف الاعصار هو انه لم تضرب فيها النقود الذهبية او الفضية قبل دخولها تحت سلطة الروم واقدم النقود التي ضربت فيها يرتقي عهدها الى دوميتيانس قيصر (سنة ٨١ ب . م)

ووجد بالقرب منها على مسافة ثلاث ساعات مدينة قديمة كانت مشهورة على عهد السلوقيين الى ايام الفتح الاسلامي اكثرها خراب الآن واسمها الرستن وهي اريثوذة اليونانية . فهذه المدينة كانت ايضاً قديمة كما يتراءى في مقالة نشرها المقتطف سنة ١٩٠٨ ومع ذلك لم يذكر اسمها عند الاقدمين

ولنا شهادات من كتب العرب والسريان تدل على قدم مدينة حمص من جملتها ما ذكره بعض المؤرخين عن رجال عظام نبغوا فيها ونشروا العلوم والآداب واولهم ابقراط ابو الاطباء الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد . فقد ذكر ابن العبري المؤرخ ان هذا الطبيب كان ساكناً مدينة حمص(١) ويتردد الى مدينة دمشق ويأوي الى بستان كان له فيها مكان معروف الى يومنا هذا في وادٍ هناك يسمى النيرب

وقال ابن الشحنة في تاريخ حلب (ص ١٨٠) « والمقيمة بلد ابقراط الحكيم ويقال حمص . ذكر ابن الرومية في شرح كتاب ديوسقوريدس »

(٢) في وصف مدينة حمص ورؤيتها
وما لها من الاتصال بارض الميعاد

قال محمد بن الشحنة في كتاب الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب الذي علقت حواشيه ووقفت على طبعه في بيروت سنة ١٩٠٥ م

(١) ابن العبري ص ٨٠ . لكنا لم نر في كتاب عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ان ابقراط الم بحمص بل قال انه كان يسكن مدينة فوروبيا في ترجمة ابقراط لابن ابي اصيبعة ذكر احد تلامذته كان حمصياً واسمه مفتس وله كتاب البول وعاش نحو سنة (عيون الانباء جزء ١ — ص ٣٣)

«ومن منازل دمشق حمص وهي مدينة قديمة عظيمة تقدم ذكرها مرات قال في مختصر البلدان . انه مشهور كبير في طرفه الشمالي قلعة حصينة على تل عالٍ ترى من مكان بعيد جداً . قال ابن فضل الله وكانت حمص معظمة عند الروم كرسي ملكهم ولم يزل يشار اليها بالتعظيم وهي في وهدة ممتدة على جانب نهر العاصي في شماليه

«وحمص مبنية بالحجر الاسود الصغير وبها الحجر الابيض ايضاً لكن الاكثر هو الاسود ويستدير بها سور وبها قلعة لا تمتنع وفي هذه القلعة قبة يقال ها قبة العباس عليها صورة رجل من نحاس قد بسط يده واشار بالسبابة الى موضع . قال وكانت هذه الصورة بانطرسوس وكان عند اهل حمص مصحف امير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فدفعوا المصحف الى اهل انطرسوس واخذوا هذه الصورة لحقهم وجهلهم

«قلت قلعة حمص الآن مصحف يقولون انه مصحف عثمان رضه فان كان صحيحاً فلعله اعيد بعد اخذه او الحكاية مكذوبة فيه والله اعلم »

وفي كتاب نزهة المشتاق : مدينة حمص مطمئنة لا يدخلها حية ولا عقرب ومتى ادخلت على باب المدينة هلكت على الحال ويحمل من ترابها الى سائر البلاد فتوضع على لسعة العقرب فتبرأ

قال ابن فضل الله وهذا من العاصي ماء مرفوع يجري الى دار النيابة وبعض مواضع بها

ومنها الجامع الاعظم وهو جامع كبير حسن البناء وبه عمود يقال انه من الكحل الاصفهاني وبها مدارس ومساجد وغير ذلك . قال وبه قبر خالد بن الوليد خرجها ولا يصح وانما هو خالد بن يزيد بن معاوية لان خالد بن الوليد مات بالمدينة (١)

قال وفي تاريخ تيمور لنك انه لما اجتاز على حمص لم يتعرض له بتهديد ولا بتنكيد احتراماً لسيدي خالد بن الوليد

قال ابن فضل الله وظاهرها اعني حمص احسن من باطنها لاسيما في زمن الربيع وما يلبس به ظواهرها من حلل الربيع الموشعة بالازهار ما مد النظر ترتو باحداق النرجس وتغور الاقاح وتتوسط بها البحيرة الصافية الماء والصافية السماء ذات السمك المنثور اليها من الفرات حتى تولد فيها والطير المبثوث في نواحيها

(١) في هذا الكلام نظر فان بعض الاوربيين يزعمون ان قبر خالد بن الوليد هو بحمص

قلت وفي بحيرتها يقول بعضهم وهو العلامة الشيخ بدر الدين بن حبيب :

جزيرة حمص كعبة النهر اصبحت يطوف بها داني ويسعى لها قاصي
ولكنها للبر والتعصف عادة الم تنظروها كيف جاورها العاصي

قال وحمص تتلو اسكندرية مصر فيما يعمل فيها من القماش الفائق على اختلاف الانواع وحسن الاوضاع(١) الى هنا نقل عن كتاب ابن الشحنة مع بعض تصرف

ووصف مدينة حمص وبرّها العلامة الانجليزي بورتر في كتابه الذي صنفه سنة ١٨٥٥ وسماه « ٥ خمس سنوات بدمشق »

قال في كتابه المذكور بجزء ٢ ص ٣٤٢ ما ترجمته :

ان مدينة حمص واقعة في نجد من الصحراء يمتد النظر فيها في بعض المواطن الى آخر مدى البصر وأول امر اهتمت به عند وصولي اليه الارتقاء الى قلعتها الشاهقة ومشاهدة ما يرى فيها من قرى وبلاد وسهول وكان برفقتي احد كهنة الروم الارثوذكس اسمه عيسى مشهور بحمص بحسن ورجل آخر اسمه سليمان . فرأيت من الاكمة التي عليها بنيت القلعة في جهة الشمال برية واسعة وفي آخرها اربعة تلال منها اثنان يعرفان بقرون حماه والوادي الذي يفصل بينهما واقع على درجة ١٣ من الجهة الشمالية الشرقية وقبل الوصول الى قرون حماه في الطريق المؤدية اليها تُرى قرية مرتفعة اسمها تلّ بيسه وفيها آثار خراب وهي تبعد عن حمص نحو ساعتين ونصف

ورأيت الى الجهة الشرقية تلالاً زرقاء اللون فوق جبال على مسافة بعيدة فقال لي سليمان ان هناك ضياعاً كثيرة مبنية كلها بالحجارة فهناك سلمية التي ذكرها ابو الفدا وتمتد البرية شرقي هذه الجبال الى آخر حدود الافق . واما في الجهة الشرقية تماماً فيرى صف آخر من الجبال تمتد جنوباً الى حدود لبنان الشرقي

وتسير القوافل الى مدينة دمشق في البرية بخط مستقيم يمتد الى حمص ثم يميل قليلا من جهة الغرب وهناك في مقاطعة لبنان الشرقي جبل شاهق اسمه جبل حليمة . ثم بين لبنان الغربي والشرقي الجبل المشهور المعروف بجبل الحرمل .

---

(١) قال الموسيو كوربه صاحب جغرافية تركيا في حمص وحماه ٤٠ الاف نول لنسج الاقمشة الحريرية والقطنية يشتغل بها ٢٨٠٠٠ صانع وقيمة ما يشتغلونه من هذه الاقمشة في السنة يبلغ ٤٥٠ر٢١٢ر١٠ فرنكاً (نحو اربعمائة الف جنيه مصري)

فالطريق المذكورة محتدة بين هذه الجبال وبين جبال البحيرة

اما بحيرة حمص فهي المعروفة ببحيرة قدس اكثر سكانها ان الماء واكثرها صفاتي وقد ضبطت قياساً فوجدت ان معظم طولها ستة اميال ومعظم عرضها ثلاثة اميال (١) وهي على مسافة ستة اميال من حمص . وعلى ضفتي نهر العاصي المسمى هناك نهر الارنط قبالة المدينة الساتين المشهورة بجوابها وجنب عمارها

ومما يستحق الذكر الاسوار الصناعية المبنية في بعض الاماكن كثيرة على ضفتي نهر العاصي فانها مبنية على شكل زاوية ويختلف طولها من خمسين الى مائتين وخمسين قدماً وهي مكسوة بحجر يضاهي البيه باثار بعض الابنية القديمة المزوجة حجارتها الصغيرة بالكلس

وقد بنيت الاكمة التي شيدت عليها قلعة حمص عدن هذه المواد وقدرت قطر عرضها بثلثمائة ياردة وعرضها بمائتي قدم وحول القلعة خندق هو الآن مغطى بالتراب والحجارة التي يرميها فيه اهل المدينة ورأيت بعض جوانب الاكمة مبطناً بحجارة رخامية كبيرة وقد ربع اكثرها من القلعة لتبليط شوارع المدينة وعند قمة القلعة جدار غليظ جداً مبني بحجارة غليظة مزوجة بالكلس

ومدينة حمص واقعة شمالي القلعة وهي من نظم واتقن ما رأيت من البلاد في سورية فان شوارعها مبلطة وجدران بيوتها من الحجر فلا يكون فيها الاوحال كغيرها سائر المدن الشامية . ولا يرى في حمص آثار ابنية قديمة الا بعض الحجارة الكبيرة وقطع اعمدة صوانية وحجارة كلسية مبعثرة في الشوارع وهي تدل على عظمة حمص قديماً وجمال هندستها وكل ما يشاهد فيها من البناء هو حديث العهد ما خلا قسماً صغيراً بجنب القلعة واليه يأتي البدو لتدميرما بقي من تلك الآثار (٢)

متاني البقيعة — يوسف اليان سركيس

---

(١) قال ابو الفداء ان بحيرة قدس وهي بحيرة حمص طوله من الشمال الى الجنوب نحو ثمان مراحل وعرضها طول البلد حسبما ذكره وهي مصنوعة على نهر الارنط فانه قد ضيق طرف البحيرة الشمالي بسد بالحجر من عمارة الاوائل ينسب الى الاسكندر وفي وسط السد المذكور برجان من الحجر الاسود وطول السد عشرة وعشرون الف وثمانون وسبعة وثمانون ذراعاً وعرضه ثمانية عشر ذراعاً ونصف ذراع وهو حابس لذلك الماء العظيم حتى لو خرب السد سال الماء وعدمت البحيرة وصارت نهراً وهي في ارض مستوية يرتفع عن جميع بلدها في عرضها وعلوه بما يسمك

(٢) في حمص آثار كثيرة قديمة العهد اكتشف منها حديثاً بعد رحلة المحرر بزمن